الفصل الثاني

﴿ في الطب البقراطي ﴾

نبذة أولى

جرى بقراط في وضعهِ قوانين الطب ومزاولة صناعة الشفاء على مبدإِ الاختبار الشخصيّ والاستدلال العلمي فجمع بين التجربة والقياس وقرن العلم بالعمل . وكان سلفاؤُهُ يعوّلون في تجاربهم على الإلهام ويهيمون في اودية الأوهام . فمهّد لخلفائهِ سبيل التحقيق وبقي مذهبهُ شائعاً وتعليمهُ راسخاً الى امدٍ غير بعيدٍ لان الفلاسفة الذين جاءوا بعدهُ نسجوا على منوالهِ ولم يغيّروا من مبادئهِ شيئاً . على ان اكثرهم اعتمدوا على مصنفاتهِ فتوسعوا في تفهّم معانيها وعلّقوا عليها الشروح الطويلة وبعضهم تحرّى طريقتهُ في وصف الامراض واسبابها واعراضها وعلاجها فرتبها على نسق يقرّبها من الفهم كما فعل اريسطو . ومنهم من تصدّى لتجربة العقاقير ومعرفة خواص الادوية فكشفوا كثيراً منها كما فعل دسقوريدس واندروماخس

وكانت اثينا لذلك العهد مهبط اسرار الحكمة ومجتمع الفلاسفة الذين انارت بتعاليمهم اقطار العالم حتى بُنيت مدرسة الطب في الاسكندرية وأنشئت مكتبتها الشهيرة فتحول اليها كثيرٌ من فلاسفة

اليونان وبذل البطالسة جهدهم لترويج بضاعة العلم وجمع الكتب فازهر مصباح الحكمة فيها بعد ان خبا نوره في سائر مدن العالم. وقد امتازت مدرسة الطب في الاسكندرية بانها اول مدرسة عُني فيها بتشريح الجثث البشرية واُجريت فيها التجارب العلمية على الحيوانات الحية لمعرفة منافع الاعضاء. ومن اساتذتها هيروفيلوس الخلقيدوني[1] تلميذ بركساغوراس من آل اسقيليبس وكان هذا من اطباء مدينة قوس جاء الاسكندرية في آخر حكم بطليموس فيلادلفوس واجتهد بمزاولة التشريح في مدرستها وكان يجلّ بقراط كثيرًا ولكنه لم يقرّ له بلوغ غاية العلم كما كانوا يزعمون ولم يسلم له بصحة ما ذكر عن اسباب الامراض وحقيقتها. وقد شهد جالينوس انه لم يكن له في التشريح كفؤًا احد. فهو على الحقيقة مؤسس هذا العلم ولا يزال ذكره مخلدًا ما الف فيه كتاب

وكان ايرازستراتوس معاصرًا لهيروفيلوس وزميلاً له وهو من تلامذة مدرسة قيدوس الاَّ انه اتخذ خطةً مخالفة لمعاصريه وسابقيه فتحرّى نقض آرائهم زاعمًا ان الشرايين لا تحمل الا روحًا وان الدم الذي ينزف عند قطع احدها انما يتطرّق من الاوردة

(1) A. Laboulbène: La Revue scientifique tome XXX de la collection – 1882
Grande Encyclopédie: Ecole de médecine d'Alexandrie

ولم يعتدّ كثيرًا باسباب الامراض العامة ولكنهُ علّق على الاعراض الاهمية الكبرى وزعم ان منشأ العلل خللٌ في الغذآء فكان يُعوّل في العلاج على المسهلات

ومن نشأ في مدرسة الاسكندرية في ذلك الزمن فيلينوس وسرابيون (1) وكلاهما ذهبا الى انّ العمدة في صناعة الطب انما هي التجربة وبنيا طريقتهما على ثلاث قواعد الاولى ان الفصاحة لا تجعل الانسان حاذقًا في فنّهِ والعامل بارعًا في صناعتهِ بل العمل والمباوسة والثانية اذا عرفتَ الدوآء فلا تهتمّ بمعرفة سبب الدآء . والثالثة لا يُشفى العليل بتشقيق الكلام ولكن بالعلاج . وهذه القاعدة كانت كثيرة الاعتبار عند الاسكندرانيين . ونشأ على اثر ذلك مذاهب أُخر كثيرة اشارَ اليها جالينوس في مصنفاتهِ وذكر اصحابها وردَّ عليهم وفند مذاهبهم

اما مكتبة الاسكندرية فقد صرف البطالسة الاموال الطائلة بانشائها وجمعوا فيها الكتب التي استنسخوها باجور باهظة من جميع الجهات فكانت تشتمل على مئات الالوف من ادراج

(1) Philinus, de Cos; Sérapion, d'Alexandrie.

البَرْدِيّ المصرية والرقوق البرغامية[1] والكتب القيّمة في جميع العلوم واللغات . قيل انها كانت تشتمل على سبعمائة الف مجلدٍ . واذا اعتبرتَ ان الطباعة لم تكن معروفةً حينئذٍ وان العلوم لم تكن منتشرة كما هي الآن وان طريقة نسخ الكتب لم تكن سهلة وقليلة الكلفة لم تجد مخرجاً للتعليل عن امكان جمع هذه الكتب الا بان المجلَّد الواحد انما كان مؤلفاً من بضعة صفائح كما زعم بعضهم[2] فتقدَّر انها لا تزيد على خمسين الف مجلدٍ بالنسبة الى الكتب المتداولة بين أيدينا . وقد حُرِق قسمٌ من هذه المكتبة سنة ٤٧ ق.م . اذ كان يوليوس قيصر يحاصر المدينة . قيل ان القسم الذي احترق حينئذٍ كان فيهِ اربعمائة الف مجلدٍ . فعُوِّض عن هذا القسم بمكتبة سرابيون ومكتبة برغاموس وكانت تشتمل على مائتي الف مجلدٍ وهبها مرقس انطونيوس الروماني لكليوبترا ملكة مصر . وزعم ابو الفرج الطبيب المؤرخ ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ارسل

(١) البردى نبات له ساق هشة كان اهل مصر في القديم يعملون منه القراطيس Papyrus . قيل ان ملوك مصر منعوا اخراج البردى من بلادهم فاستنبط اهل برغامس الرق يتخذونه من جلود المعزى وغيرها للكتابة بعد صقلها ولذلك سمى بالرق البرغامى (mambrana pergamena)

(2) A. Laboulbène; Revue scientifique 1883. tome: XXXII de la collection P. 648
Grande Encyclopédie; Bibliothèque

الى عمر بن الخطاب يخبرهُ بالفتح ويستشيرهُ بأمر المكتبة فكتب اليهِ " ان كانت هذه الكتب مخالفةً لكتاب الله فلا حاجة لنا بها وان كانت موافقةً لهُ ففي كتاب الله غنىً عنها " فامر بحرقها وبقوا ستة اشهر يوقدون بهـا الافران . وسواء كانت هذه الرواية صحيحة او غير صحيحة فقد سبق بطاركة الاسكندرية الى تعطيل الموزايوم الشهير ونهب المكتبة مراراً منعـاً للوثنيين واليهود من تعليم فلسفتهم . وقال كلوت بك [1] ما ملخصهُ : ان الكتب التي حُرقت بامر ابن العاص كان اكثرها من كتب الفلاسفة الجدلية والدينية اما مكتبة ارسطو ومصنفات بقراط وجالينوس وافلاطون فقد سلمت وبقيت وهي التي عُني الخلفاء بترجمتها الى العربية

ومن نبغوا في مدرسة الاسكندرية الفيلسوف الشهير كلوديوس جالينوس جاء اليها في مقتبل عمرهِ وقد أدبهُ الدرس وحنكتهُ التجارب وبقي اربع سنين يشتغل في التشريح ويتخرج في علم الطب حتى بلغ غايتهُ منهما . وُلد في مدينة برغامس (من ميسيا في آسيا الصغرى) سنة ١٢٩ م على الاصح [3] وكان ابوه نيقون من اشراف هذه المدينة

(1) Aperçu général sur l'Egypte Par A.-B. Clot-Bey; tome II. p. 331

(2) La Revue scientifique ;1882. Travau de Darmberg sur Galien

(٣) جاء في موسوعات العلوم الفرنسوية انه ولد سنة ١٣١م

واغنياءها وحكامها ففي بتهذيبه وتعليمه حتى بلغ عمره السنة الخامسة عشرة ثم سلمه الى الفلاسفة الافلاطونيين ليعلموه الفلسفة ولما صار عمره ١٧ سنة رأى في الحلم ان يعلمه الطب. ومات ابوه وعمره ١٨ سنة. ولما بلغ السنة العشرين جاء الى ازمير والف فيها ثلاث رسائل ثم جاء الى الاسكندرية وبقي فيها اربع سنين كما تقدم ثم آب الى موطنه يشتغل بالتطبيب حتى بلغ من العمر ٣٣ سنة فجاء الى رومة في بداية حكم مرقس اوريليوس قيصر وكان يلقي على العموم الدروس الطبية والفلسفية الى ان تفشى الطاعون سنة ١٦١ فارتحل عنها وقد عيب عليه ذلك . ثم طلبه الامبراطور صديقه الى رومة وأمره ان يذهب مع الجيش في بعض حروبه فأبى زاعماً ان اسقيليبس اوحى اليه في الحلم ان لا يترك رومة فرغب القيصر اليه بتعليم اولاده وكان يشتغل بالتأليف . وكثرت المشاحات بينه وبين اطباء رومة فغالبهم وغلبهم ولم يسلم من نقده احد الا انه كان يجل بقراط ويحترمه ويثني على هيروفيلوس لبراعته بالتشريح . توفي وعمره سبعون سنة في مسقط رأسه برغامس

وكان الاطباء في زمن جالينوس مختلفين في الآراء والمذاهب ففريق كان يعوّل على التجارب دون القياس . وفريق كان

ينكر التجارب فلا يعرف للطب الا مزية العلم . وزعم قومٌ ان المرض انما يحدث في المادة المؤلف منها بدن الانسان وليس للطبيعة دخلٌ في اصلاح الخلل الحادث فيجب ان يقاوَم بالعلاج الموافق لان التوقف مضرّ . وقال آخرون ان المرض ليس الا الخلل الحادث في الاخلاط او احدها تخرج به عن حد الاعتدال والطبيعة انما تقتضي الموازنة فلذلك يقوم اصلاح الخلل بمساعدة الطبيعة والعبرة بالتوقف [1] . ومنهم قوم اعتمدوا على السفسطة والترّهات فسمى بعضهم بالمخرقين وآخرين بمنمقي العبارات والفشّارين والمقلّدين . قال الشيرازي لما ظهر جالينوس كانت صناعة الطب قد اندرست ومُحيت محاسنها ومُخفي اكثرها فاحياها بعد موتها واظهرها بعد خفائها وحررها بعد تبديلها . صنف في اكثر فروع الطب كتباً كثيرة وشرح مصنفات بقراط في ١٥ كتاباً وحكى ترجمة حياته في مقدمة كتاب عملهُ لقراءة كتبهِ . واكثر مصنفاته تُرجمت الى العربية في القرن التاسع . ومنها ما فقد اصلهُ اليوناني وبقيت

(١) يراد بالتوقف expectation الوقت الذى يراقب فيه الطبيب فعل الطبيعة بدون مزاولة العلاج فى اول الامر ليتبين هل الطبيعه جاريه على خطه السلامه او مائلة الى حالة الخطر فيتدبر بما تقتضيه الاحوال

ترجمتهُ العربية ثم تُرجمت الى اللغات الاوروبية وطُبعت مراراً قال ابو العلاء المعري

سُقياً ورعياً لجالينوس من رجُلٍ ... ورهط بقراط غاضوا بعد او زادوا
فكلما أصَّلوهُ غير مُنتقضٍ ... به استغاثَ اولوا سُقمٍ وعوَّادُ
كُتبٌ لطافٌ عليهم خفَّ محملُها ... لكنَّها في شفاءِ الداءِ أطوادُ

واشتدت في مدينة الاسكندرية المشاحات على العقائد الدينية بعد تملك الرومانيين وانتشار الديانة المسيحية وتباينت المنازع السياسية وكثرت الفتن بين أهليها لتباين المنازع واختلاف العقائد فاضطرَّ العلماء الى مهاجرتها فخبا نور العلم فيها ودُرست الصناعة الطبية واخنى الدهر على مكاتبها ومتاحفها فتفرقت ايدي سبا . وكان الرومانيون منشاغلين بالسياسة والحروب فلم يعمر للعلم في ربوعهم منتدى ولم يذكر التاريخ عن اطبائهم الا افراداً اشهرهم بولس الايجيني من جزيرة ايجينا ويسمى بالقوابليّ لانهُ كان متضلعاً بعلم الولادة وامراض النساء فكانت القوابل يستشرْنهُ . عاش في آخر القرن الرابع بعد المسيح . وترجم حنين بن اسحق بعض مؤلفاتهِ الى اللغة العربية . ونبغ في ذلك القرن القس هرون الاسكندري وهو اول طبيب وصف الجدري والحصبة باليونانية مجموعةً تشتمل على ثلاثين كتاباً في الطب ترجمها الى اللغة

السريانية ماسرجيس اوماسرويه الاسرائيلي من بصرى بالاشتراك مع عالم آخر من الاسكندرية اسمه غوسيوس اوجاسيوس واخذ عنها الرازيُّ وعليُّ بن عباس وزعما ان اكثرها منقول عن كتب فلاسفة اليونان ولا سيما جالينوس . وهذه المجموعة اول الكتب التي حصل عليها العرب في علم الطب

ولا يسعنا ان ننتقل للكلام على اطباء العرب قبل ان نذكر شيئاً من ترجمة شيخ فلاسفة اليونان وامام الفلاسفة اجمالاً واعني بهِ ارسطو[1] . كان اوحد زمانهِ في الطب والفلسفة والطبيعيات وجميع العلوم وهو المشار اليه في كتبهم بالفيلسوف الاكبر والفيلسوف الاول اخذ عنهُ العرب الحكمة وترجموا مصنفاتهُ واشتغل كثير منهم بشرحها والتوسع في معانيها . وكان ابوهُ نيكوماخس Nicomaque طبيب ملك مكدونية امنتاس Amyntas الثاني ابي فيليبوس ابي الاسكندر الكبير وجدهُ كان طبيباً ايضاً من آل اسقليبس فلا غرابة اذاً ان يكون الاسكندر العظيم تلميذاً لهذا الفيلسوف العظيم . ولد سنة ٣٨٤ ق . م . وتوفي سنة ٣٢٣ ق . م . ودخل مدرسة افلاطون في اثينا اذ كان عمرهُ ١٨ سنة وبقي ملازماً لهُ عشرين سنة حتى توفي استاذهُ ٣٤٧ ق . م . فترك اثينا ثم عاد اليها يدرس الخطابة وسنة ٣٤٢

(1) Aristote; Grande Encyclopédie

دعاهُ الملك فيلبوس المقدوني لتهذيب ابنهِ الاسكندر وكان عمرهُ حينئذٍ ١٤ سنة فلم يفارقهُ حتى شرع بالفتوحات في آسيا سنة ٣٣٤ ق . م . ثم اشتغل بالتدريس والتصنيف قال الشيرازي انهُ صنف مائة وثمانية عشر كتاباً وهو اول من تكلم في صناعة البرهان وجعلوا آية العلوم النظرية * وذكر الشيرازي من اطباء اليونان آخرين منهم روفس قال انهُ كان بعد بقراط بنحو مائتي سنة وكان من اجلّ علماء اليونان ذكرهُ جالينوس في عدة من كتبهِ واثنى عليهِ وعلى زهدهِ وعلى علمهِ صنف كتباً كثيرة وأفرد امراضاً كثيرة كلاًّ بمصنف ومن كلامه ,, امتحن المرء في وقت غضبهِ لا في وقت رضاهُ ،، وقولهُ ،، خير الاشياء اجدُّها الا المودات ،، . ومنهم اريباسس قال انهُ كان طبيب ملوك زمانهِ انتهى اليهِ علم الطب بعد جالينوس وكان ماهراً في احوال النساء وكان على دين النصرانية واكثر تصنيفه الكنانيش . ومشيح بن الحكم كان طبيباً نصرانياً قيل انهُ ممن أخذ عنهُ الحارث بن كلدة وكان حسن العلاج والتصوير وكثيراً ما ينقل عنهُ الرازي في الحاوي ومن كلامه ،، انفع الاشياء موت الاشرار ،، وقال ،، سلوا القلوب عن المودات فانها شهود لا تقبل الرشى ،، وقيل لهُ ما اصعب شيء على الانسان قال ،، معرفة نفسه وكتم سره ،،